محمد علي باشا والسلطان محمود الثاني

العوامل الجغرافية والاقتصادية في النزاع بينهما

— ٢ —

كثير من العوامل الجغرافية والاقتصادية جعل سورية ميداناً للنزاع الشديد بين محمد علي والسلطان محمود

﴿ الخشب ﴾ ان مصراً رغماً عن خصبها لم تكن تكفي سكانها منذ مائة سنة وما كان يزرع فيها من اشجار الجميز والسنط والنخل لم يقض سوى القليل من حاجتهم وحاجة محمد علي خاصة الى الخشب فكان عليه ان يستورد معظم ما يحتاج اليه من الوقود والاخشاب التي يحتاج اليها في اعمال الحرب والسلم كبناء السفن لنقل الغلال تيلاً الى الاسكندرية وبحراً الى مرافىء الشرق الادنى وصنع البوارج والنقالات الحربية التي عرف بثاقب نظره ان لا بدّ له منها في حروبه مع متبوعه

كانت مصر الخصبة غنية بالحاصلات الزراعية كالقطن والنيلة ومختلف المواد الغذائية فكان من خرق الرأي ان تزرع فيها الخراج ليستعاض باخشابها عن الاستيراد[1]. ولم يستطع محمد علي حينئذٍ ان يستفيد من الخشب الكثير في خراج السودان بعد فتحه لتلك البلاد لان الجانب الاكبر من تلك الخراج كان وراء السدّ في انحاء منقلة[2] ولذلك لم يستطع نقل خشبه طافياً على مجرى النيل لان السدود والشلالات حواجز طبيعية تمنع ذلك ولان الفيضان السنوي بين ابريل وسبتمبر يغمر الاخشاب الطافية وينشرها فوق الاراضي التي يفيض عليها النيل[3]. فاضطرّ ان يحذو حذو تحتمس الثالث ورعمسيس الثاني في العصور القديمة وابن طولون في العصور المتوسطة وهو ان يبحث عن الاخشاب التي يحتاج اليها في سورية وبلاد الترك

كانت خراج سورية منذ مائة سنة اكثر انتشاراً مما هي الآن ولا يزال السائر في

---

(١) كلوت بك ج ١ صفحة ٢٤٦

(٢) هذه المعلومات وما اليها مستقاة من صاحب السعادة اميل عمر طوسون ومن مدير المجلس الاقتصادي في حكومة السودان

(٣) جرب محمد علي أن يبدل الشلال كما جرب تحتمس الثالث فلم ينجح

Hamont. L'Egypte sous Mehemet Ali, 1. 217-218.

جنوب سورية يرى آثار حرج شارون الشهير[٤] وكانت الاشجار والاشجار تغطي جبل الكرمل والسهل بين الكرمل والناصرة حتى مدخل وادي مداخل القدس[٥]. كذلك كانت اشجار السنديان والبطم والصنوبر تغطي الآكام الشرقية في الخليل والمخدرات الغربية في عجلون وجلعاد[٦] وكانت حراج السنديان والصنوبر كثيرة في جبال لبنان الى شمال بيروت وجنوبها يمشي المسافرون في ظلالها ساعات متوالية هرباً من حرارة الهجير

واذا حولنا انظارنا شطر جبال لبنان الشرقية (انتيلبنان) وجدنا فيها كثيراً مما اشتهرت به سورية من الغابات والحراج. وتلال انطاكية واللاذقية كانت مغطاة من قمتها الى سفوحها باشجار الشربين والسنديان وكذلك كانت الحراج الكثيفة تغطي منحدرات امانوس[٧] ويقال ان مساحة الحراج في جهات انطاكية بلغت نحو ٥٠٠ الف هكتار[٨] اضف الى ذلك كله ان سكان مصر كانوا يحتاجون الى خشب الجميز والتوت الذي في سورية وقيليقية فيصنعون من الاول مطارق للارز[٩] والطنابير المائية[١٠] وكانت معامل محمد علي تصنع من فحم قضبان التوت بارود اً استعمله في حروبه[١١]

وخير مقياس نقيس به ما كان لخشب سوريا وقيليقية من المقام لدى محمد علي هو مقادير ما قطعهُ ضباطهُ من اشجار الحراج المختلفة بين ١٨٣١—١٨٤٠ فما كاد ابرهيم باشا يصل الى انطاكية حتى اصدر اوامر مشددة لبناء طرق تصل بين الحراج والبحر[١٢] حتى يسهل نقل الاشجار منها الى مصر. وقد أرسل نحو ٨٠ الف جزع شجرة من شمال سورية وقيليقية سنة ١٨٣٧. وقبل انتهاء تلك السنة جاء الاسكندرونة ضابط موفد من قبل محمد علي لاختار ما يزيد على مليون شجرة ويراقب قطعها وارسال اجزاعها الى مصر لتستخدم في بناء سدود وعمل اعمال

(٤) Eusebe De Salles, Pererginations en Orient etc; 1, 407.
(٥) Carne Letters, 249
(٦) Dr. George Post's Palestine Exploration Fund Quarterly Statement, 1888, 200
(٧) W. L. Kelly, Syria and the Holy Land etc; p. 266.
(٨) Quinet, Turquie d'Asie, 11, 16.
(٩) H. Guys, Relation d'un sejour de plusieurs années a Beyrout et dans le Liban, (Paris 1847), 1.39—40.
(١٠) Hamont, L'Egypte sous Mehemet Ali, 1. 165. For other uses of sycomore see كلوت بك ج ١ صحة ٢٦٧
(١١) Ibid, II, 72.
(١٢) St John, Egypt and Mohammed Ali, II, 415.

أخرى على النيل(١٣). كذلك قطعت اشجار أخرى من غابة ارز لبنان وارسلت الى معامل الذخيرة والسلاح في مصر(١٤)

﴿ المعادن ﴾ وكان محمد علي في حاجة شديدة الى الفحم والحديد والنحاس لان معاملهُ وترساناته كانت تستعمل مقادير كبيرة من هذه المعادن كل سنة. وكان يلزم لهُ ان يسعى لانشاء سكك وبناء سفن وآلات بخارية او استيرادها(١٥). ادرك محمد علي ما لمسألة المعادن من المقام في نجاح عمله فجعل يفكر في حلها. فارسل حسن باشا سنة ١٨١٩ ليبحث عن الفحم في الصعيد(١٦) وبعد انقضاء خمس سنوات ارسل اثنين من الافرنج يدعيان سيف وبرتون في المهمة نفسها (١٧) ولكن الثلاثة لم يجدوا شيئاً من المعادن التي كان يحتاج اليها حينئذٍ فجعل يبحث عنها في مكان آخر. فبعث بروتشي الى جبل لبنان ليبحث عما فيهِ من المعادن ولم تنقض على بروتشي سنة حتى بعث تقريراً الى سيدهِ فيهِ انهُ يمكن العثور في لبنان على حديد ونحاس وذهب وفضة وزئبق. وكان سكان لبنان في ذلك الحين قد حفروا منجم قرنايل واستعملوا بعض ما فيهِ طبيًّا (١٨) فكان هذا التقرير من اقوى العوامل على تقرب محمد علي من ولاة سورية ورغبتهِ في ضمها الى مصر

﴿ الجنود ﴾ لم يكن تحت سيطرة محمد علي رجال كثيرون يكفون لزرع الارض وخوض غمار المعارك. فتجنيدهُ الكثيرين من رجال مصر وخسائرهُ في حروبهِ ببلاد العرب والسودان وشبه جزيرة المورة قلّلا اليد العاملة في مختلف اعمالهِ الزراعية والصناعية (١٩) فاضطر ان يترك كثيراً من اطيانهِ غير مزروع لقلة العمال. وفي حلّ هذه المسألة التفت الى السودان اولاً كما فعل في حلّ مسألة الخشب. لكن بلاد السودان لم تفِ بحاجتهِ لان السودانيين كالعنود الحر لا يستطيعون ان يتحملوا التغير في اساليب معيشتهم. فحين جيء بهم الى مصر وجدوا مصاعب كبيرة في تحمل مشاق المعيشة العسكرية فتتكت بهم الامراض ومات كثيرون منهم بالسل(٢٠). وحينما ذهب ابرهيم باشا في حملتهِ

(١٣) J. Bowring, Report on Syria etc. pp. 11-12, 69.
(١٤) De Salles, Peregrinations etc; 1, 127.
(١٥) St. John, Egypt and Mohammed Ali, II, 415.
(١٦) الجبرتي ج ٤ ص ٣٣٣
(١٧) F. Bonola, l'Egypte et la Geographie, (Ed. 1889), 9-11.
(١٨) H. Guys, Beyrout et Liban, I,294, 295.
(١٩) Hamont, Egypte sous Mehemet Ali, 1, 45.
(٢٠) Ibid. I, 494. Ibid.

العسكرية الى شبه جزيرة المورة كان معهُ نحو ٦٠٠ او ٨٠٠ جندي سوداني وكان في نيته ان يجعلهم حرسهُ الخاص لكن التغير في المعيشة اضعف اجسادهم فمات اكثرهم في السفر (٢١) ولذلك لم يفلح ما اشار بهِ ماتجان من سدّ النقص في سكان مصر بترحيل قبائل من السودان اليها (٢٢)

وبعد ما فشل محمد علي في الاعتماد على الجنود السودانيين تطلع الى سورية. فسكان سورية ولبنان حينئذٍ كانوا بطبيعة بلادهم شديدي المراس كما انهم كانوا كثيري العدد حتى قال بعض السياح في القسم الاول من القرن التاسع عشر ان سكان سورية كانوا يعادلون سكان مصر حينئذٍ (٢٣)

فلا محلَّ لدهشة اذا رأينا محمد علي يعتمد عليهم في جيوشهِ وهو القائل «من جبال لبنان اجند جنودي فادرب منهم جيشاً كبيراً ولا اقف بهِ الاَّ على ضفاف دجلة والفرات» (٢٤)

﴿ التجارة ﴾ ولو ان محمد علي كان غنياً لما كانت حاجتهُ الى الاعشاب والجنود شديدة الوطأة عليهِ لكن المال في خزائنهِ لم يكف نفقاته الكثيرة . فحروبهُ في بلاد العرب والسودان وشبه جزيرة المورة استنفدت كثيراً من مالهِ . ثم اشترى عمارة بحرية من اوربا وبعد تدميرها في نافارينو جرّب ان يبني سفنهُ الحربية في معامل خاصة انشأها لهذا الغرض . وكان عليهِ ان يبني جيشاً لا يقلُّ عن عشرين الف محارب ويدفع للباب العالي جزية سنوية كبيرة . اضف الى ذلك ما وجب عليهِ انفاقهُ على موظفي الباب العالي من رشوة — كل هذا اثبت لهُ وجوب البحث عن مصدر للثروة اذا اراد النجاح في حروبهِ مع السلطان محمود (٢٥)

ادار طرفهُ فلم يجد مصدراً للثروة قريب التناول اغنى من سورية وقيليقية. كان ذلك قبلما حفر قنال السويس وسدت السكك الحديدية في قلب القارة الافريقية وحين كانت البواخر المسافرة الى الشرق الاقصى تدور حول رأس الرجاء الصالح في اقصى افريقية من

(٢١) St. John, Egypt and M. Ali, II, 475,

(٢٢) Histoire de l'Egypte etc. II, 320.

(٢٣) المعروف أن لبنان وحده كان قادراً أن يجند جيشاً عدته مائة الف محارب حسب قول Guys, Beyrout et Liban, I, 275-276; II, 209-210.

(٢٤) Correspondance des Generaux Beillard et Boyer, p. 79.

(٢٥) لم يطلب محمد علي المال قبال ولا للحصول على كماليات الحياة ولم يتمتع بالجواهر Aus, Mohammed Aly 15 Reich I, 176.

وكانت ميزانية حكومته ٤٢٠٥٠٠٠ كيس سنة ١٨٧٣ لم يخصص منها لبيته سوى ٤٠٠٠ كيس Browing Report p. 45

الحنوب . في ذلك الزمن كان كل من القطرين السوري والمصري مستقلاً استقلالاً اقتصادياً فكانت مصر تصدر الى سورية الارز والسكر والرطب والقمح والسمسم والبلة[٢٦] والسمك المقدد[٢٧] وعرق اللؤلؤ وعطر الورد واصنافاً مختلفة من المنسوجات القطنية والصوفية[٢٨] وكانت سورية تصدر الى مصر حريراً وقطناً وزيتوناً وجلد ماعز وجذور الفوة وخيلاً واحجار رحى وكثيراً من مصنوعات اسيا الوسطى والهند والصين[٢٩] التي كانت تجيء اليها مع القوافل

وكان محمد علي قد احتكر حاصلات مصر فدرّ عليه هذا الاحتكار مالاً طائلاً فعزم ان يفعل في سورية ما فعلهُ في مصر لعلّ له من ورائه مالاً وفيراً

﴿ الحرير ﴾ وكان الحرير السوري وما ينسج منهُ اول ما لفت نظرهُ . لان الاتجار بهذا الصنف في مصر كان واسعاً حين قدوم الحملة الفرنسوية اليها . ولم تكتفِ مصر بما فيها من حاصل الحرير فاستوردت حريراً من تونس والجزائر ومراكش[٣٠] . واصدرت اللاذقية الى مصر ٥٤ الف اقة من الحرير الخام بين سنة ١٧٩٨ وسنة ١٧٩٩ . واصدرت بيروت وطرابلس ما يزيد على ٦٤٠ الف اقة واصدرت صور وصيدا نحو ٩٠ الف اقة[٣١]

وكانت دمشق في مقدمة المدن التي تصدر الحرير منسوجاً فاصدرت الف قطعة من «الكريش» و٢٠ الف قطعة من « الآلاجا » وعشرة آلاف قطعة من « القطني »[٣٢] كانت منسوجات حلب المقصبة وكفيات بيروت مشهورة بمصر في عهد محمد علي[٣٣]

ووجّه محمد علي عنايتهُ الى حرير سورية لسبب آخر ذلك انهُ كان مهتماً بجعل البلاد مستقلة استقلالاً صناعياً عن اوربا فحاول ان يدخل تربية دود الحرير في مصر فتشل

(٢٦) الجبرتي عجايب الآثار طبع القاهرة سنة ١٨٢٢ ج ٤ ص ١٤٩ و١٦٥
Description de l'Egypte, (Paris Ed. 1824)XVII, 312-313.

(٢٧) Description de l'Egypte XVII,250; De Salles,Peregrinations I, 11

(٢٨) Description de l'Egypte, XVII, 218-220, 238, 314.

(٢٩) De Salles, Peregrinations etc; 1, 214; Carne, Letters 175; Guys Beyrout et Liban, 1, 341; Pococke 1,39; Hamont, 11,382;St. John Egypt and Nubia, 22; Description de l'Egypte, XVII, 125,233 308, 309.

(٣٠) Description de l'Egypte, XVII, 303–305;

(٣١) Ibid. 310.

(٣٢) Ibid. 309-310.

(٣٣) Guys, Beyrout et Liban, 1, 168; F. Perrier, La Syrie sous le Gouvernement de Mehemet Ali etc; 89.

لشدة الحر فيها فكان الدود ينقف من البزر قبل ان يورق شجر التوت فيموت الدود جوعاً (٣٤) . وكانت الرياح الغربية الجنوبية التي تسفي ذرات الغبار والرمل وتقلبات الحرارة الفجائية تجيء باعراض تميت ما بقي من دود الحرير . وعلى الضد من ذلك كان سورية كثيرة الملائمة لتربية دود الحرير سواء في هوائها او اعتدال حرارتها . فاشجار التوت تورق حين ينقف البزر والدود ليس معرضاً فيها لامراض بكتيرية كالتي تهاجمهُ في البلدان الحارة . لذلك رآها مناسبة لتحقيق الاستقلال الاقتصادي الذي يرمي اليه من هذه الجهة (٣٥)

﴿ الصابون ﴾ ومما رغب محمد علي باشا في امتلاك سورية صناعة الصابون فيها . كان قد انقضى مئات من السنين وسكان سورية يصنعون الصابون ويصدرونهُ الى مصر يؤيد ذلك ان فلسطين اصدرت سنة ١٧٩٩ نحو تسعة آلاف قنطار (٣٦) من الصابون الى مصر . وكان لبيروت وطرابلس تجارة واسعة في الصابون مع مصر في الربع الاول من القرن التاسع عشر . واذا علمت ان محمد علي كان في حاجة شديدة الى الصابون في معسكراته وسفنه ومعاملهِ وقصورهِ (٣٧) ادركت شأن الصابون كعامل اقتصادي رغب محمد علي باشا في ضم سورية الى مصر

﴿ زيت الزيتون ﴾ وكانت مصر تعتمد على سورية في مسألة الزيتون وزيتهِ لان زيتون الفيوم وما زرعهُ محمد علي في جوار القاهرة كانت اثمارهُ كثيرة الماء لا يستخرج منها زيت كالزيت السوري في جودته (٣٨) . وذلك لان اشجار الزيتون تتفق بطبيعتها مع تربة كلسية يسهل تجفيفها كتربة سورية وبلاد اليونان . ولا تتفق مع تربة رسوبية كتربة وادي النيل . ثم انهُ كان من خرق الرأي ان يكفَّ عن زرع المزروعات التي تجود في مصر خاصة ليزرع الزيتون مكانها ولذلك رأى انهُ يستطيع ان يستغني بزيتون سورية وزيتها عما كان يستوردهُ من الخارج

ستأتي البقية

---

(٣٤) Hamont, Egypte sous M. Ali, I, 83.

(٣٥) ليست هذه كل الاسباب التي أدت الى فشل تربية دود الحرير في مصر وانما تريد ان نبين أن هذا الفشل أدى الى اهتمام محمد علي بتربيتهِ في سورية

(٣٦) نكاد نجزم أن الحالة كانت كذلك في القسم الاول من القرن التاسع عشر . ويقول سعيد بك طوكان النابلسي وعمره الآن ٧٥ سنة ان أباه وجده كانا يصدران الصابون الى مصر

(٣٧) كان يستعمل مقادير كبيرة منه في مصنع الطرابيش بنوه حسب قول Jomard Coup-d'ceil etc. 206

(٣٨) امر ابراهيم باشا بعد رجوعه من المورة بزرع ١٨٠ الف شجرة (كب) زيتون في جوار دیوانه بالقاهرة وفي اراضيه بالقبة St. John I, II, 443